ما أحبها من نقلة !

للأستاذ محمود الخفيف

أحبب إلى نفسي بهذه النقلة إلي تاريخ أمريكا في سيرة زعيمها العظيم « أبراهام لنكولن » ، فإنه لمن أعظم ما يسر القراء لاريب حديث صاحب العبقريات عن أشبه العبقريين في الغرب بابن الخطاب وما أولى لنكولن بنصيب مما يكتب العقاد ؛ ولو تفضل كاتبنا الكبير فعقد فصلا أو أكثر من فصل ، فوازن بين لنكولن وعمر ، وهو خير من يفعل ذلك ، لمددت هذا من أفضل ما بلغت بكتابي من خير ...

وبعد ، فأرجو من أستاذنا الجليل أن يصدقني أن عنايتي بتاريخ لنكولن هي التي حفزتني إلى كتابة هذا الفصل والذي سبقه ، إذ لا زلت من بعض الملاحظات التي أبداها الكاتب الكبير غير مطمئن النفس ، وما كان ذلك دفاعاً عن كتابي بقدر ما هو رغبة مني في الاهتداء إلى الصواب .

لا زال تاريخ أسلاف لنكولن سراً في أطواء الزمن ، وأكبر الظن أنه سوف يبقى كذلك ، وماذا عسى تحتويه الكتب عن أبيه النجار ، وعن جده لأبيه ، وقد كان كذلك نجاراً بين أحراج الغابة قتلته رصاصة أطلقها عليه أحد الجنود الحمر ؟ وماذا عسى أن يعرف عن أمه وهي ابنة سفيحة لرجل مجهول من أهل الجنوب ؟ ولولا أن تحدث بذلك لنكولن إلى صاحبه هرندن ما عرف حتى هذا القدر من سيرتها ...

بذلك رددت على ما أخذه على الأستاذ الكبير من خلو كتابي من تعريف كاف بأسلاف لنكولن من جانب أبيه وأمه ؛ وكان ما ذكره الأستاذ تعقيباً على ذلك الرد قوله : « وقد اعتقد الأستاذ الخفيف أن البيان الكافي عن أسلاف لنكولن غير ميسور ، لأن الرجل كان كما هو معلوم عصامياً خامل الآباء والأجداد ؛ ولكن الواقع أن اللائق يعرض لنا من أمر آبائه المعروفين ونستطيع حله من تاريخهم » .

إذاً فلاسبيل لنا إلى أسلافه ، ويبقى بعد ذلك آباؤه المعروفون وما نعرف إلا أباه وأمه . ولقد ماتت أمه وهو في العاشرة من عمره فحرم من تأثيرها في نفسه ، ذلك التأثير الذي أشرت إليه في كتابي بقولي : « كان الغلام ينتقل ببصره وخياله من أمه إلى أبيه ، وكانت أمه في أقاصيصها جادة ، تحس لفسه الصغيرة شيئاً من الحزن يطوف بنفسها ويتسرب إلى حكاياتها ؛ أما الأب فكان يميل إلى المرح والفكاهة ، ويتدفق إذ يحكي تدفق من لا تنطوي نفسه على شيء مما تنطوي عليه نفس الأم ، وما كان شيء من ذلك ليخفى على فطنة الغلام ، وأحدثت القصص الدينية أثرها في نفس الصبي وظلت عالقة بلبه وخياله ، وجرت في كيانه مجرى الدم في عروقه ، واختزنت حافظته ألفاظها بنصها حتى ليتحرك بها لسانه وإن لم يقصد » .

ولم يكن لأبيه من أثر في نفسه ولا من صفات نستطيع أن نردها إلى آبائه فنعرف ، ولو بما يقرب من اليقين شيئاً عن أسلافه فنحل اللغز بعض الحل ؛ أما ذلك الذي كانت تنطوي عليه نفس الأم ، فمرده في الأكثر إلى أنها كانت تجهل أباها ؛ على أني لم أسه عما قد يكون للوراثة من أثر في حياة لنكولن ، فأوردت

في كورفو ، أيام الكرنفال . . وتأملت — في ألم مرير — البون الشاسع بين ما حدث هنا وما حدث هناك .

بعد أن غاب العلم المصري عن عيني وانقطع صوت البوق عن أذني . . واصلت السير ، وأنا أقول في نفسي :

إن الوقوف لتحية العلم — بالصورة التي شرحتها آنفاً — قد يبدو للمرء — في الوهلة الأولى — كمظهر من المظاهر المادية التي لا تستحق الاهتمام . غير أن هذا الوقوف — في حقيقة الأمر — من الأعمال التي تتصل بتربية النفس اتصالاً وثيقاً ؛ فإن هذه الوقفة التي تضطر الإنسان إلى الخروج عن عالمه الخاص ، ولو لمدة قصيرة .. وتحمله على الانقطاع عن السير وراء مصالحه الشخصية ، ولو لثوان معدودة . وتجبره على الاهتمام بالعلم الذي يمثل وطنه وتاريخه ودولته ولو لفترة وجيزة . .

إن هذه الوقفة المادية ، لمثل هذه الأغراض المعنوية ، لا بد من أن تؤثر في النفس تأثيراً عميقاً ، ولابد من أن تساعد على إيقاظ الشعور القومي وإشاعته مساعدة كبيرة .

أبو خلدون ساطع الحصري

فى صفحة ١٥١ من كتابى ما قصه على صديقه هرندن إذ قلت :
« وإنه ليفضى إلى صاحبه هرندن ذات يوم بحديث عن أقاربه وصلته بهم ، ويتطرق الكلام أثناء هذا الحديث إلى منشأه فيكشف لنكولن لصاحبه عن سر يتصل بأمه ، وذلك أنه لا يعرف أجداده لأمه ، فقد كانت أمه التى أحبها والتى يجل ذكراها ابنة رجل مجهول ، وسيظل هذا الرجل مجهولا أبداً ، وكل ما يستطيع أن يعرفه عنه أنه من أهل الجنوب ، وبيان ذلك أن جدته لأمه كانت تعيش وهى فتاة فى ولاية فرجينيا فى الجنوب فأصبحت ذات حمل وإن لم تتزوج ، ووجدت نفسها بعد أشهر الحمل تضع أنثى ، وكانت هى وحدها التى تعرف والد هذه الأنثى ، ولقيت من أهلها أشد الغضب لزلتها ، ولكنهم احتضنوا بنتها فنشأت بينهم تنتسب إليهم وليست منهم . ذلك هو السر الذى يفضى به لنكولن إلى صاحبه على ما فيه مما يوجب الكتمان ، ويردف إبراهام قائلا لصاحبه إنه كان ثمة من ميزة فيه لا يوجد مثلها فى أحد من ذوى قرباه ، فردها لاريب إلى أجداده المجهولين من أهل الجنوب » .

***

أما عن أثر المصادفة فى حياة لنكولن ، فإنى أخشى أن يكون الذى يخرج به القارئ مما كتبه الأستاذ الكبير فى هذا الصدد أن لنكولن مدين للمصادفة بكل شىء ، فقد قال الأستاذ فى مقاله الأول : « وقد كان من الجائز جداً ألا يصل إلى رئاسة الجمهورية لأنه لم ينجح قط فى انتخاب أو ترشيح إلا كان للمصادفة فى اللحظة الأخيرة أكبر الأثر فى هذا النجاح » ؛ وقال فى مقاله الثانى : « ولم يكن نصيب المصادفات التى كان لها أكبر الأثر فى الترجيح بين الأحزاب نفسها وبين جيوش الشمال وجيوش الجنوب أوفى نصيباً من هذه المصادفات التى صعدت بلنكولن إلى رئاسة الجمهورية » .

وأرجو ألا أثقل على أستاذنا العلامة حين أقول له إنى لا زلت أخاصمه فى هذا ، وإنى لا زلت أرد كل ما أصاب لنكولن من فوز إلى شخصيته ، فما أعرف فى العصاميين رجلا مثله اتكأ على نفسه فى جميع أطوار حياته ، وما أعرف مثله من كانت الظروف كلها من عدوه . وكيف لعمرى تصعد المصادفات بنجار ابن نجار إلى رياسة الجمهورية ، وكان فى هذه الجمهورية آلاف النجارين غيره ؟ ذلك ما لا أستطيع أن أحمل خيالى على تصوره ، إن هذا الرجل الذى بات يحزم متاعه بيده آخر ليلة قبل سفره إلى العاصمة ليجلس فوق كرسى وشنطون قد بنى نفسه بنفسه . وإنا لنرى اعتماده على نفسه واضحاً فى كل أطوار سيرته حتى فى هذا العمل الذى يبدو هيناً فى ذاته وهو عظيم فى معناه ، فقد شهر الرئيس ابراهام لنكولن يملأ حقائبه بيده ويحزم متاعه دون معونة من أهله أو من صحبه ، فما اعتاد الرجل العظيم معونة من أحد !

إنى أفهم أن تأتى المصادفة لحامل أو لمدعى بشىء من اليسار أو الفوز مرة أو أكثر من مرة ، كما أفهم أن تحول المصادفة بين ذى جدارة وبين ما يريد مرة أو أكثر من مرة ؛ ولكنى لا أستطيع أن أرد ما يبلغه العظيم الحق من مكانة أو ما يصيبه من فوز إلى المصادفة ، وإلا فما معنى عظمته ، وما معنى العظمة الفردية على الإطلاق ؟ إن هذا يقتضينا أن ننكر عنصر الاستعداد الفردى ، أو ما نسميه العظمة الشخصية ، ونجعل تاريخ البشرية سلسلة أو سلاسل من المصادفات لا ندرى كيف تجرى مجراها . ألا إن الرجل العظيم نفسه لهو المصادفة ، فما هو إلا أن يتطلب عصره وجوده ويتهيأ لاستقباله حتى يستغلق السر وتشمل العصر كله ، وتسيطر عليه روح الرجل العظيم ، وهذا وحده الذى يفسر بروزه وسيطرته على غيره من الناس .

وما كان لنكولن بدعاً من العظماء ، فقد اشتغاله بالسياسة اقترن اسمه بالمشكلة الكبرى التى شغلت بلاده ، ألا وهى مشكلة الرق ، ثم ما زالت آراؤه فى هذه المشكلة تتضح وتتسع دائرتها حتى اشتهر أمره . وإن له لمقدرة فى الخطابة تسلكه فى أفذاذ هذا الفن من الموهوبين ؛ واغتدى لنكولن أحد رجال الحزب الجمهورى المعدودين ، وكانت الغلبة لهذا الحزب لأسباب كثيرة أهمها حسن سياسته فى مشكلة الرق ، ولقد اشتغل بالسياسة واهتم بمشكلة الرق غير لنكولن من كبار الجمهوريين ، ومع ذلك أخذ صيته ، وهو المحامى الفقير الذى لا جاه له يعظم يوماً بعد يوم حتى أفرقهم جميعاً ؛ وما المصادفة من أثر قط فى هذا ، وبهذا وحده اتجهت القلوب إلى لنكولن وبخاصة بعد ما كان من جدال طويل على أعين الناس بينه وبين دوجلاس أحد قادة الديمقراطيين ، وإن اتجاه القلوب إليه لهو « الترشيح » الذى تحسه الأنفس قبل وقوعه رسمياً ...

فإذا كان هذا جميعاً من المصادفات ، فيجب إذاً أن نتفق على معنى المصادفة ، وإلا عددنا حوادث التاريخ جميعاً مصادفات ،

وجعلنا أعمال بونابرت مثلا أو سعد زغلول أو غيرهما من المصادفات ، وما هي إلا تلك القوة التي يمتاز بها الرجل العظيم ، أو تلك « الروح » التي لا تدرك ولا تفسر .

وهل نعد قضية الرق في ذاتها مصادفة ، واشتغال لنكولن بها مصادفة ؟ وما قيمة هذه المصادفة إن عددناها مصادفة ؟ والمهم هنا هو كيف علا صوت لنكولن فيها على جميع الأصوات ؟ وكيف نفذ إلى القلوب دون غيره ؟ وهل نعد مواهبه وفي مقدمتها الخطابة كذلك من المصادفات ؟ وإذاً فماذا يبقى من « الرجل » ؟

ولقد فشل لنكولن في السياسة أكثر من مرة ، فأين كانت المصادفة ؟ هل نعد فشله كذلك مصادفة كما نعد نجاحه لو أنه نجح ؟ ولقد فاز دوجلاس بمقعد الشيوخ دونه بعد صراعهما الطويل ، وعاد هو إلى عمله في المحاماة ! ؟

ودعي لنكولن بعد هذا الفشل إلى نيويورك فخطب الناس هناك فسحرهم بيانه بعد أن سخروا من منظره ومن هندامه ومن شعره الأشعث الذي يعلو رأسه الكبير كأنه ألفاف الغابة . وقد قال الصحفي الشاب جريلي وهو من خصومه : « ما من رجل استطاع أن يبلغ بخطابه لأول مرة ما بلغه لنكولن من عظيم الأثر في جمهور السامعين في نيويورك » .

ونشرت كبريات الصحف خطابه وبدأ اسمه يظهر بين أسماء المرشحين لرياسة الجمهورية . ولما عقد الجمهوريون مؤتمرهم العام في شيكاغو في شهر مايو لاختيار أحدر رجالهم ليرشحوه للرئاسة ، كان سيوارد واثقاً من نفسه قليل الاكتراث بلنكولن ، وقدم زعماء المؤتمرين خمسة أسماء غيرهما وجرى الاقتراع على دفعات ، وأعلنت نتيجة الدفعة الأولى من الولايات ، فإذا سيوارد يزيد على لنكولن بسبعين صوتاً وصوت ، ثم أعلنت نتيجة الدفعة الثانية فإذا لنكولن لم يبق بينه وبين منافسه القوي إلا ثلاثة أصوات ، ثم تعلن نتيجة الدفعة الأخيرة ، فإذا إبراهام يظفر على صاحبه ببضعة أصوات فحسب . وإذاً فالأمر هنا أمر اختيار وتمحيص وليس للمصادفة دخل فيه . وما يقال عن عدم إعداد الأوراق اللازمة للاقتراع ونشاط جريلي وتحويله معظم المندوبين عن رأيهم فهو من قبيل ما يروى عن المعارك الانتخابية مما يشبه القصص بقصد التسلية والتشويق أو يدافع المبالغة ، إذ لا شك أنه مما ينبغي أن يؤخذ في كثير من التحفظ أن تتحول آراء المندوبين في فترة قصيرة في أمر عظيم كاختيار رجل للرياسة في غير سبب من شأنه أن يفضي إلى هذا التحول الخطير . ولقد كان جريلي من أشد خصوم لنكولن طيلة حياته ، وظل على لدده حتى بعد أن ظفر لنكولن بالرئاسة . ولم تكن خصومته لسيوارد إلا مفضية إلى نجاح منافسه ، وهذا مما يجعلنا نرتاب فيما لسب إليه يوم ذلك المؤتمر العام . هذا إلى أنه لو فرض وقوعه كما ذكرنا فإنه أقل من أن يحول آراء المندوبين بالقدر الذي يؤدي إلى نجاح لنكولن

لقد مكن لنكولن لنفسه قبل ترشيحه ، وسبق هذا الترشيح نشاط وتنافس عظيم في القول والكتابة بين أنصار سيوارد وأنصار لنكولن ، وجاء انتصار لنكولن بعد ذلك متفقاً مع مكانته التي ظل عاملا عليها ، لا طامعاً في الرئاسة ، ولكن استجابة لما كانت تهجس به نفسه .

ومع ذلك كله ، فقد كان من الجائز ألا يظفر لنكولن بالنصر في معركة الرياسة وإن رشحه الجمهوريون ، ولكنه ظفر ونال مائة وثمانين صوتاً من أصوات مندوبي الولايات الذين ينتخبون الرئيس وفق الدستور ، وكان عددهم ثلاثمائة رجل وثلاثة ، وهذا العدد قلما ناله رئيس من قبله .

لقد شق لنكولن طريقه إلى الرياسة في مشقة ، وتحمل من عنت الأيام ومن قسوة الظروف ما يزيد في معنى عصاميته ، وما يجعل من الصعب بل من المستحيل على المرء أن يتصور أن المصادفات هي التي صعدت به إلى رياسة الجمهورية ، ولقد ظل يشتغل بالسياسة أكثر من عشرين عاماً حتى نبه اسمه وذهب صيته في طول أمريكا وعرضها ، وهو الذي خرج من بين أحراج غابة من غاباتها فقيراً معدماً علم نفسه بنفسه ، ولم يتكىء منذ كان طفلا إلا على نفسه ...

وبعد ، فإني أعود فأشكر للأستاذ الجليل ما أبداه من ملاحظات على كتابي كانت سبباً في هذه النقلة المستحبة في تاريخ البلاد الأمريكية ، ولعلنا نظفر منه بأمثالها ، وإني لسعيد إذا صدقني كاتبنا الكبير أني لم أرد بالرد على ملاحظاته القيمة دفاعاً عن كتابي ، وإنما الصواب طلبت ؛ وما أبرئ نفسي من الخطأ ، ولست أرى أن كتاباً يوضع في تاريخ لنكولن وتاريخ الولايات المتحدة في عصره يصدق القائل فيه إذا قال إنه يخلو من ملاحظات جلت أو هانت تلك الملاحظات .